العودة المتخيلة ـ المستقبل

جنكيز تشاندار*

عائد إلى قلعة عكا**

لا يكفي أنني ولدت مع قيام دولة إسرائيل أو بالأحرى مع حلول النكبة، تلك الكارثة التي لحقت بالشعب العربي الفلسطيني، لكنني عشت معها طوال ٧٠ عاماً. وعلى امتداد هذه الأعوام، واكبت منذ شبابي تطورات قضية فلسطين، أو الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، لكن حتى في هذه السن المتقدمة نسبياً بعد أن أصبحت في السبعين من العمر، هناك ما يذكّرني بها كل يوم تقريباً. لقد انتقلت إلى العيش في ستوكهولم منذ بعض الوقت، وفي كل يوم أتجول في أرجاء الحدائق الملكية بجوار بحر البلطيق، وكل مرة وعند كل زيارة، أمرّ من أمام تمثال فولك برنادوت المقام تخليداً لذكرى هذا الكونت السويدي الذي اغتالته منظمات صهيونية في القدس في ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨. لقد قُتل قبل أربعة أيام من ولادتي. واليوم، بعد ٧٠ عاماً من اغتياله ومن مولدي، تتقاطع يومياً تقريباً ذكراه وأيام النكبة وقيام إسرائيل وطريقي.

هذا بالنسبة إليّ هو أيضاً تذكير يحثّني على أن أتخيل ما حل بالأراضي المقدسة بعد تلك الأيام المصيرية التي تزامنت مع تاريخ ميلادي. في شبابي، عندما كنت ناشطاً والتحقت في سنوات تكويني الأولى بالحركة الوطنية الفلسطينية، وجُلّها في لبنان، حتى إن لم أكن أتصور أنني سأعيش حتى أبلغ السبعين من العمر، كنت أتخيل أن دولة فلسطين ستقوم، وأن دولة إسرائيل لن تكون هناك، وفقاً للمبادىء الأساسية للميثاق الوطني الفلسطيني. كنت أمنّي النفس برؤية بلد واحد مستقل وديمقراطي، تعيش فيه مختلف الأطياف والمذاهب معاً، وتنعم بالمساواة والحرية.

كانت تلك رؤية طوباوية طبعاً، لكنني كنت بين المؤمنين بقيام تلك المدينة الفاضلة، من دون أن يخطر في بالي على الإطلاق إن كان الأمر طوباوياً أم لا. في مثل

---

* صحافي وكاتب تركي.

** مقالة خاصة بـ "مجلة الدراسات الفلسطينية"، بعنوان:
My Palestine in my 70th Birthday
ترجمة: صفاء كنج.

تلك السن المبكرة، عندما كانت أذهاننا تمتلىء بالتفاؤل وبجرعة من الرومانسية والعواطف التي تطغى على ضرورات الواقع، لم يكن هناك مجال، في ذهني أو في مشاعري، للتفكير أو الشعور بخلاف ذلك. كانت الطوباوية هي الحقيقة ذاتها. لم يكن المبدأ الذي تضمّنه الميثاق الوطني الفلسطيني التزاماً أيديولوجياً يجب الوفاء به، بل كان بوصلة أخلاقية يستهدي بها كل منا، بما في ذلك أنا نفسي، للنضال من أجل إقامة نظام عادل في فلسطين واحدة مستقلة وديمقراطية. ونظراً إلى أن هذا ما شببت عليه في أوائل السبعينيات، مباشرة بعد كارثة أُخرى شهدناها في سنة ١٩٦٧، فما الذي كان يمكن أن أحلم بأنه سيحدث للقضية الفلسطينية ودولة إسرائيل، عندما أصبح في عمر السبعين، لو كُتب لي أن أعيش حتى هذا العمر؟

ها نحن الآن في الذكرى السبعين. هل حلمت يوماً أني سأستيقظ بعد ٧٠ عاماً من سبات عميق في فلسطين، في قلب القدس، لأرى أن الحال اختلفت عمّا كانت عليه في يوم مولدي؟

في تلك الأثناء، سافرت مراراً إلى الأراضي المقدسة، ولم أترك تقريباً مكاناً لم أزره أو حجراً لم أقلبه، قابلت يهوداً عاديين جاؤوا من جميع أنحاء العالم للعيش هناك، وكذلك أولئك الذين ولدوا ونشأوا في تلك الأرض، وتواصلت مباشرة والتقيت مع عشرات لا بل مئات الفلسطينيين من رفح وخان يونس وغزة إلى نابلس، ومن جنين إلى الخليل، من أريحا إلى بيت لحم، وفي كل حي من أحياء القدس، من جبل الزيتون إلى وادي الجوز، من الشيخ جراح إلى سلوان، وكذلك مع أبناء الناصرة وحيفا ويافا. أتيحت لي الفرصة للتعرف إلى شخصيات إسرائيلية يمكن اعتبارها من الآباء المؤسسين لدولة إسرائيل، من يتسحاق رابين إلى شمعون بيرس، ومن أبناء الجيل اللاحق الذي كان له دور مهم في تاريخ تلك الأرض، من عيزر وايزمن إلى مردخاي غور. والتقيت كذلك عدداً كبيراً من الشخصيات الفلسطينية في ديارهم، فقد حالفني الحظ وحظيتُ بفرصة عظيمة في أن ألتقي شخصياً فيصل الحسيني أحد قادة الانتفاضة الذي لا تغيب ذكراه، وكثيراً ما سُعدتُ بالاجتماع والحديث مع المقدسي صاحب الفكر المتعمق سري نسيبة. لكن الأهم، أني قابلت على أرض فلسطين أبو عمار الذي لن تمحى ذكراه لديّ ما حييت. بعد بيروت وتونس قابلت أبو عمار عدة مرات، حول مائدة طعامه، في غزة، وفي المقاطعة في رام الله أيضاً.

مع مثل هذه الخبرة والتجربة، طغى واقع الحياة في فلسطين وكل ما يتعلق بها إلى حد كبير على حياتي لدرجة أنه لم يخطر في بالي ولم أستوعب في لاوعيي أن أحلم بما يمكن أن أتوقعه عندما أفتح عيني في فلسطين في الذكرى السبعين للنكبة وقيام دولة إسرائيل.

ومع ذلك، لا تزال تحضرني قصة أحتفظ بها بعناية في ذاكرتي؛ حديث أجريته مع فلسطيني بسيط في مدينة عكا القديمة ولم يغب عن بالي قط، بل لا يزال محفوراً عميقاً في ذهني بحيث إنه يعود بكل قوته كأنه جرى بالأمس كلما فكرت في قضية فلسطين والأرض. إنه بمثابة حلم يقظة بالنسبة إلى أولئك الذين يستمعون إليه، في حين أنه ربما حلم لا يموت بالنسبة إلى الرجل الذي تكلمت معه؛ بغضّ النظر عمّا إذا كان لا يزال في قيد الحياة.

كان ذلك في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦. تلقيتُ دعوة حينها من وزارة الخارجية

الإسرائيلية للقيام بزيارة "لتقصي الحقائق". كنت قد بلّغت أبو عمار وأبو جهاد الذي كان في عمّان في ذلك الوقت، بتلك الدعوة، وأيد كلاهما بحماسة سفري إلى "الداخل".

كان تنظيم الزيارة جيداً تماماً لدرجة أنني بدأت أول يوم لي على مائدة الإفطار مع إيهود أولمرت الذي قُدّم إليّ على أنه "الشخصية ذات المستقبل السياسي الواعد" في إسرائيل. وفي الواقع، أصبح أولمرت بعد أعوام رئيساً للحكومة. قابلتُ شمعون بيرس وعيزر وايزمان مباشرة بعده، ومن أجل "التعرف إلى البلد بشكل شامل"، أخذني مضيفِيّ إلى مسعدة، ثم سرنا صعوداً من شاطئ البحر الميت على طول وادي نهر الأردن إلى كيبوتس قرب الحدود اللبنانية في الشمال. وكانت المحطة التالية في عكا.

كانت رؤية عكا مناسبة خاصة جداً ومؤثرة بالنسبة إليّ، لأنني عشتُ عاماً كاملاً ١٩٧٢/١٩٧٣، في مخيم اللاجئين الفلسطينيين في برج البراجنة في لبنان، وكانت الأغلبية العظمى من سكانه من قضاء عكا. كان العديد من الفلسطينيين الذين قسموا خبزهم معي، على الرغم من ظروفهم المعيشية البائسة، في الأصل من عكا، وبالتالي أصبح لها مكانة خاصة لديّ، أكثر قليلاً من أي مكان آخر في أرض فلسطين.

لكن كان هناك سبب آخر أكثر أهمية لشعوري بهذا القرب من عكا. ففي آخر يوم لي في المخيم في نيسان/أبريل ١٩٧٣، حضر أحد جيراني، ويدعى أبو وسام، إلى مسكني المتواضع ليودعني. كان أبو وسام كبير السن، أو هكذا بدا لي حينها، مع أن عمره لم يكن أكثر من ٥٠ عاماً، وكان يعيل عائلة كبيرة، كثيرة العدد. كان عليه أن يكسب قوت عائلته الذي كان مؤلفاً من أكياس الطحين التي كانت وكالة "الأونروا" تعطيه إياها. وفي منزله المتواضع وعلى الرغم من فقره، كان رجلاً سخياً طيب القلب. لقد كان الأول بين العديد من العائلات الفلسطينية المحيطة بنا التي شملتنا، نحن الأتراك في ذاك المخيم وضمن الحركة الوطنية الفلسطينية، بكرمها ومحبتها. كان دائماً يحاول جاهداً ألاّ يجعلنا نشعر بالحنين إلى وطننا، ويعمل على مساعدتنا من أجل تحسين ظروفنا المعيشية في المنفى، داخل مخيم برج البراجنة.

كنت على وشك أن أبدأ فترة جديدة من حياتي في المنفى. كانت فترة بقائي مع المقاومة الفلسطينية توشك أن تنتهي، وكان عليّ أن أغادر لبنان ببطاقة من حركة "فتح" إلى سورية، على أن أسافر من دمشق إلى أوروبا بجواز سفر مزيف للانضمام إلى رفاقي الأتراك من أجل النضال ضد الفاشية التي كنا نعتقد حينها أنها تهيمن على تركيا. في ليلتي الأخيرة في بيروت، طُرق باب كوخي الصغير المكون من غرفة واحدة في مخيم اللاجئين الفلسطينيين في برج البراجنة. فتحت الباب فوجدتُ أبو وسام أمامي. كنتُ قد زرت جميع أصدقائي في المخيم لتوديعهم بمَن فيهم هو. دعوته إلى الدخول من دون أن أفهم لماذا جاء لرؤيتي مرة أُخرى.

جلس على الكرسي الوحيد في كوخي البائس. كان يحدق في عينيّ مباشرة من دون أن يقول أي شيء. نظرنا إلى بعضنا البعض في صمت لمدة دقيقة أو نحو ذلك، ثم قطع الصمت وبدأ يتحدث: "انظر"، قال لي، "في يوم من الأيام، قد تعود إلى بلدك، وسأعود أنا إلى بلدي.

علينا أن نلتقي مرة أُخرى في هذه الحياة. من الصعب عليّ أن آتي إلى تركيا لزيارتك. لكن أنت يمكنك القدوم إلى فلسطين بسهولة. لذلك، سأخبرك الآن كيف تجدني، في أي وقت تأتي فيه. عندما تكون في فلسطين، احرص على القدوم إلى عكا. وما إن تصل إليها، يصبح كل شيء هيّناً. كل ما عليك أن تفعله، عندما تكون في عكا هو أن تسأل عن محطة الباصات. وعندما تصل إلى محطة الباصات، اسأل فقط عن الباص الذاهب إلى الغابسية. اركب الباص الذاهب إلى الغابسية وعندما تصل إلى هناك، اسأل عني. أبو وسام. الكل يعرفني. سنلتقي مجدداً في الغابسية!"

كان يتحدث عن الغابسية وعن محطة الحافلات في عكا، عن كل شيء كما لو أنه غادرها قبل يوم أمس. والأغرب من ذلك أنه كان يصف لي تفصيلات عكا والغابسية كي أجده هناك، كما لو أنه كان على وشك العودة إلى منزله بعد بضعة أيام. لم يهتز تصميمه على العودة إلى فلسطين وتفاؤله بالعودة إلى منزله في الغابسية ومواصلة حياته من حيث انقطعت، قيد أنملة.

وعدْته بأن آتي وأبحث عنه في الغابسية. عانق أحدنا الآخر للمرة الأخيرة، وأنا أحاول مداراة دموعي.

بعد ثلاثة عشر عاماً تقريباً، في ذلك اليوم من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦، كنت في عكا برفقة ثلاثة مرشدين إسرائيليين من وزارة الخارجية. لقد حرصوا على أن أرى المرفأ والمدينة القديمة التي بناها العثمانيون في طريقنا من نهاريا إلى حيفا. نزلنا من السيارة وسرنا نحو الوسط التاريخي، إلى المدينة القديمة. وبين هؤلاء الإسرائيليين، كان هناك ديفيد غرانيت الذي أصبح سفير إسرائيل في تركيا بعد ذلك ببضعة أعوام. نادى بالعبرية على رجل من المدينة يقف في الزاوية وهو عربي إسرائيلي كما يسمون رعاياهم الفلسطينيين، ليرشدنا إلى البلدة القديمة. بدا الرجل الذي نده عليه في الخمسينيات من عمره، وقادنا عبر الأزقة الضيقة لعكا القديمة. ثم سألت ديفيد إن كان في إمكاني أن أسير أمامهم مع مرشدنا العربي. فكان ردّه: "خذ وقتك. لا تتردد في أن تفعل ما ترغب فيه." بدا لي أن الإسرائيليين إمّا أنهم كانوا واثقين تماماً من أنفسهم، وإمّا أنهم كانوا يريدون حقاً إقناعي بأنه لا يوجد أي ضغوط على أي شخص يخضع لحكمهم.

اقتربت من مرشدنا ابن عكا، ورحت أتحدث إليه بالعربية بصوت منخفض، وأخبرته بأنني لست إسرائيلياً، وأنني صحافي تركي، وأنهم مجرد مرافقين لي، وأني أردت أن أسأله عن مكان محطة الباصات إلى الغابسية. حدّق في وجهي وعلت وجهه الدهشة والاستغراب وسألني، "لماذا تسأل عن الغابسية؟"

حكيت له قصتي مع صديقي أبي وسام في مخيم اللاجئين الفلسطينيين في برج البراجنة في بيروت. هز الرجل رأسه وقال: "لم تعد الغابسية هناك. لم يبقَ فيها حجر على حجر. لم يعد لها وجود. إنها الآن مساحة فارغة للزراعة."

سألت بإصرار، وربما بدا الألم واضحاً على وجهي وأنا أكرر: "لا أثر، لا شيء؟ ألا يمكن أن

أرى شيئاً إذا ذهبت إلى هناك؟" وكان رده مقتضباً وحاسماً، "للأسف. لا شيء..."

طلبت منه حينها أن يشير إلى اتجاه الغابسية التي يمكن الوصول إليها في خلال ١٥ إلى ٢٠ دقيقة بالحافلة من عكا، حيث كنّا، ففعل. حاولت أن أتصور الأيام التي عاشها أبو وسام وآخرون قبل أن يغادروا بيوتهم ويصبحوا لاجئين. نظرت حولي لأرتشف بعيني المشاهد التي اعتادوا رؤيتها وكانوا يأملون برؤيتها مرة أُخرى.

ربما شعر الرجل بما كنت أشعر به في تلك اللحظة بالذات، فطلب مني أن أتبعه. ثم أضاف وهو يشير إلى الإسرائيليين خلفنا: "قل لهم أن ينتظروك هناك. سآخذك إلى مكان ما وأريك شيئاً، فقط لك أنت، ثم نعود."

أخبرت الإسرائيليين بما قاله لي. وبدا ديفيد، مرة أُخرى متفهماً فقال لي: "خذ وقتك. سنكون هنا، في انتظارك."

سرت مع الرجل العكّاوي عبر المدينة القديمة حتى وصلنا إلى أسوار قلعة عكا المطلة على البحر. انحنى في اتجاه البحر مشيراً إلى الصخور تحت الأسوار وقال: "انظر، ماذا ترى؟" قلت له إن ما أراه هو مياه البحر الأبيض المتوسط والصخور التي تلامسها الأمواج في أسفل قلعة عكا.

ابتسم ابتسامة عريضة قائلاً: "أنت الآن ترى الجزء الأهم من فلسطين. هل تعرف أهمية هذا المكان، هذه الزاوية من فلسطين بالتحديد؟"

وتابع حديثه قائلاً: "هذا هو بالضبط المكان الذي غادر منه آخر الصليبيين أرض فلسطين. آخر واحد غادر من هنا، من هذا المكان."

أرادني أن أنظر إلى المشهد مراراً وتكراراً. وبعبارات الارتياح البادية على وجهه راح يتحدث عن مملكة عكا الصليبية (كانت عكا العاصمة الأخيرة لمملكة القدس)، فقال: "هم ظلوا هنا قرابة ١٠٠ عام"، واستخدم كلمة "هم" مرة أُخرى، لكنه هذه المرة كان يعني ضمناً دولة إسرائيل، "هم لم يمضِ عليهم بعد هنا ٥٠ عاماً. ومثلما غادر أولئك بعد ١٠٠ عام سيغادر هؤلاء أيضاً. من هنا بالضبط. من هذا المكان الذي أريك إياه الآن"، قال مؤكداً.

"نحن هنا وسنبقى"، تمتم قائلاً، ثم أضاف: "ومثل أولئك الذين ظلوا هنا ١٠٠ عام وغادر آخرهم من هنا، هم أيضاً سيغادرون من هنا ..."

بعد سبعين عاماً من ولادتي في تلك السنة التي قامت فيها دولة إسرائيل، بعد ٧٠ عاماً من النكبة، ماذا أحلم أن أرى، كمجرد خيال، عندما أفتح عيني في فلسطين؟

الأمر بسيط جداً: الغابسية لا تزال هناك، مثلما كانت قبل ٧٠ عاماً. لقد جئت إلى عكا، وسرت إلى محطة الباصات لأركب الباص. وبعد ١٥ أو ٢٠ دقيقة وصلت إلى الغابسية، وبعد نحو نصف ساعة جلست أحتسي الشاي مع صديقي العزيز أبو وسام... ■